

جهود علماء أصول الفقه في خدمة اللغة العربية وعلومها

د. خالد حسين الخالد

المقدمة:

لقد كان احتفاء علماء أصول الفقه الإسلامي باللغة العربية وعلومها فائقاً جداً، ابتداءً أستاذهم الأول، الإمام الشافعي رحمه الله، الذي كان كلامه حجة في اللغة، وهو بعد زمن الاحتجاج. وازداد هذا الاحتفاء واتسع وتآلق في أمهات كتب الأصول، القديمة منها والحديثة. إن اللغة العربية بعلومها المختلفة، ليست وافداً غريباً على علم أصول الفقه، بل هي أساس كبير من أسسه؛ لأن الغاية من أصول الفقه فهم نصوص الشريعة للتمكن من استنباط الأحكام الفقهية منها. ونصوص الشريعة جاءت في الأصلين العظيمين، القرآن الكريم والسنة النبوية، وهما واردان باللغة العربية فحسب، وجاء على سننها في الفصاحة والبلاغة، بل هما القمّتان السامقتان في ذلك. أما القرآن الكريم، فمُعْجَزٌ في بيانه باللفظ والمعنى. وأما السنة النبوية، فهي وحي أيضاً من الله لرسوله، ولكنها وحي غير متلوّ، والرسول سيد العرب في الفصاحة والبلاغة، وقد آتاه الله جوامع الكلم (١). إن اللغة العربية، وضِعاً واشتقاقاً، ونحواً ووصفاً وبلاغة؛ قد تخلّلت كثيراً من مباحث علم أصول الفقه. ولو نظرت في فهارس كتب هذا العلم، لوجدت كثيراً منها أشبه ما تكون بعناوين كتب العربية، بل بينها تطابق في أكثرها، كما سئرى. هذا في العناوين الظاهرة، وأما ما عُمس منها في مباحث الأصول فكتير جداً، أيضاً. إن الأصوليين تزوّدوا من اللغة العربية زاداً كبيراً حتى الشّع، وشربوا من معينها حتى التصلّع؛ لأنهم وجدوها أسألاً يُستغنى عنه في إعداد وجباتهم الأصولية الدسمة؛ فقد أدخلوها في المقبلات (مقدمات علم الأصول)، وفي صلب الوجبات الرئيسية (مباحث دلالات الألفاظ وتفسير النصوص)، وفي أعقاب الوجبات (عند حديثهم عن شروط المجتهد). فأى احتفاء بالعربية أكبر من هذا؟ وقد كانت المبادئ اللغوية عند بعضهم يطول بيانها وشرحها حتى تبلغ حجماً كبيراً يقرب من ثلث الكتاب، كما فعل ابن أمير حاج في كتابه (التقرير والتحبير في شرح التحرير)، المطبوع في ثلاث مجلدات كبار، حيث استغرقت ما يزيد عن ثلاثمئة صفحة (٢). هذا، ولم تكن صلة علماء أصول الفقه بعلوم اللغة العربية اقتباساً منها فحسب، بل أخذوا من مادتها جذوراً وفسائل أصلية، ثم نمّوها في تربتهم الأصولية الخاصة، لتتلاءم وبيئتها الجديدة، وأدخلوا عليها تحسينات كثيرة، فقد كان لبعضهم اجتهادات وآراء لغوية وترجيحات، لا نجدتها عند أهل اللغة أنفسهم. بل إن بعضهم كانت له كتب مطولة متخصصة في موضوعات لغوية، مثل كتاب (الاستغناء في أحكام الاستثناء) للقرائفي، وكتاب (مجاز القرآن) أو (الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز) للعز بن عبد السلام، وكتب ابن الحاجب في النحو والتصريف والعروض، وغيرها. وهذا البحث، الذي سيشارك في مؤتمر متخصص باللغة العربية، سيقصر على ثلاثة مباحث فقط تكون كافية لتحقيق هدفه الرئيس، وهو إبراز جهود علماء أصول الفقه في خدمة اللغة العربية بياناً وابتكاراً. هذا، ويبقى الباب مفتوحاً للزيادة في مباحثه المختلفة، ولدي مباحث أخرى لم أدرجها فيه من أجل الالتزام بالحجم المحدد لكل بحث، قدر المستطاع. والله ولي التوفيق.

المبحث الأول

(التعريف بأصول الفقه الإسلامي، وبيان مدى عناية علماء الأصول بالعربية إجمالاً)

× تمهيد:

إن كثيراً من المثقفين والدارسين غير المتخصصين، لا يميّزون بين علم الفقه وبين علم أصول الفقه، ويحسبون أن أصول

الفقه هي المسائل الرئيسية من الفقه الإسلامي، أو القواعد العامة فيه. والحق، أنّ الأمر ليس كذلك؛ لأنّ أصول الفقه علم يختلف عن علم الفقه، اختلافاً كبيراً، وإنّ كان بينهما من صلة القرابة، كما بين الأمّ وأولادها؛ فأصول الفقه أمهات يلدنّ الفقه، كما أنّ بعض الفقه يصير أمّاً تلد بعض الأصول (٢). فالفقه الإسلامي، هو الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد (٤). أما أصول الفقه، فهو العلم بالقواعد التي يتوصّل بها إلى استنباط الفقه، من أدلته التفصيلية (٥). والقواعد التي يقوم عليها علم أصول الفقه، تستمدّ من ثلاثة مصادر؛ علم الكلام - أي العقيدة أو أصول الدين -، وعلم العربية - اللغة والنحو والبلاغة والتصريف -، ومن الأحكام الشرعية الثابتة بالنصوص من القرآن والسنة والإجماع (٦). وهناك قواعد أخرى تستمد من أسرار التشريع الإسلامي وحكمه (أي مقاصده)، كما ذكر الشيخ محمد الخضري - رحمه الله - إضافة من كلام الإمام الشاطبي (٧). وبهذا يتبيّن لنا أنّ علوم اللغة العربية تكوّن أحد الأعمدة الثلاثة - أو الأربعة - التي يقوم عليها ببيان أصول الفقه الإسلامي، ولعل علوم اللغة هي العمود الأكبر فيها.

وعليه، سنجد في هذه الدراسة الموجزة أنّ علماء الأصول قد قدموا لعلماء العربية خدمات جليلة، بقصد أو بغير قصد، من خلال كتاباتهم الأصيلية في جميع علوم العربية، وقد كان بعضهم من علماء اللغة أيضاً. وسوف نرى - في المباحث الآتية - كم أجاد علماء أصول الفقه في عرض المباحث اللغوية، بما يتناسب وعلمهم، وكم كانت لهم ابتكارات وإضافات خاصة في الشكل والمضمون، تُعد بحق تطويراً للدراسات اللغوية. فهذا المبحث، يأتي عامّاً في عرضه، مجملاً في بيانه، ليكون منطلقاً لما يأتي بعده. فأتناول فيه مقتطفات من كلام بعض كبار علماء الأصول، يتجلّى فيها مدى حاجة علم أصول الفقه إلى علوم العربية، ومدى اهتمام الأصوليين بعلوم اللغة بحثاً وبيانا، وحجم الموضوعات المشتركة بينهما. إنّ علم أصول الفقه، من أهم علوم الشريعة الإسلامية؛ لأنه يجمع بين المنقول والمعقول، وهو من العلوم المستحدثة بعد عصر التابعين، وإن كانت معانيه ملحوظة في أذهان الفقهاء من الصحابة والتابعين، وهذا يتجلّى فيما نقل إلينا من آرائهم الفقهية ومستنداتها وتعليقاتها.

ولا غرو أنّ كان واضح علم الأصول، الإمام الشافعي رحمه الله (ت: ٢٠٤هـ)، حجة في اللغة العربية - مع أنّ حياته كانت بعد عصر الاحتجاج اللغوي؛ لأنه مكث في قبيلة هذيل عشر سنين، فحفظ لغتها وأشعارها، وهي يومئذ من أفصح العرب - ويُقرّر في مواضع كثيرة من (رسالته) - وهي الكتاب الأول في أصول الفقه - أهمية تعلّم لسان العرب؛ فيقول: "على كل مسلم أن يتعلّم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك" (٨). ويقول أيضاً: "وإنما بدأت بما وصفت من أنّ القرآن نزل بلسان العرب، دون غيره؛ لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحدٌ جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرّقها. ومن علمه انتمّت عنه الشبهة التي دخلت على من جهل لسانها" (٩).

وعند حديثه عما يُطلب ممن يجتهد بالقياس - والاجتهاد عنده هو القياس (١٠) - اشترط فيه، فيما اشترط، العلم بلسان العرب، بل بلوغ غاية الجهد في ذلك، فقال: "ولا يكون لأحد أن يقيس، حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن، وأقوال السلف، وإجماع الناس، واختلافهم، ولسان العرب، ... وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده، والإنصاف من نفسه، حتى يعرف من أين قال ما يقول، وترك ما يترك" (١١).

واليكم بعض النصوص التي تبين أهمية علوم العربية بالنسبة لعلم أصول الفقه، ومدى خدمة الأصوليين للعربية وفنونها: النص الأول: من كلام أحد كبار قدامى الأصوليين، وهو أبو الحسين البصري المعتزلي (ت: ٤٣٦هـ)، الذي يعدّ كتابه